

شارلمان وهارون الرشيد

كارستن لي *

في عام 797 بعد الميلاد أرسل شارلمان (ملك الفرنجة أو الفرنكيين) وفدا دبلوماسيا صغيرا إلى ديوان هارون الرشيد في بغداد لتأسيس تبادلٍ وتواصلٍ بين العباسيين وإمبراطورية الكارلنجيين. ضم هذا الوفد كلاً من فرانك لانفرايد وسيجموند والتاجر اليهودي إسحاق. وتولى الأخير مهمة تنظيم الرحلة، وذلك لقدرته على التحدث بعدة لغات إضافة إلى علاقاته التجارية حول العالم في ذلك الوقت. وعاد إسحاق وحده إلى شارلمان عام 802 بعد خمس سنوات بعد أن قام بإجراء المحادثات المطلوبة وجلب هدايا ثمينة من الشرق، من بينها الشرقي القديم والذي كان اسمه أبو العباس وهو عبارة عن فيل حي "أبيض".

كانت رحلة إسحاق بمناسبة المعرض الكبير "الشرق القديم. التاجر إسحاق والفيل الأبيض. بغداد- القدس -آخن". رحلة عبر ثلاث حضارات بين العام 800 واليوم، والذي تم عرضه في القاعات التابعة لكاتدرائية ومدينة آخن في الفترة من 30 يونيو حتى 28 سبتمبر، 2003م.

لماذا سعى شارلمان إلى إجراء حوار مع الخليفة العباسي والحاكم للإمبراطورية تلك التي كانت تبعد آلاف الأميال عن سلطانه والتي لها حضارة ودين مختلف؟ يمكن الإجابة على هذا السؤال عند مراجعة التوازن السياسي للقوى آنذاك. كان هارون الرشيد (763-809م) من أقوى الحكام دون شك في ذلك الوقت، حيث يسيطر على الشرق الأوسط القريب إضافة إلى أجزاء كبيرة من الساحل الأفريقي على البحر المتوسط. وفي الوقت نفسه كان خليفة العالم الإسلامي وحامي المقدسات في مكة والمدينة والقدس، بالرغم من ذلك كانت عُدُوَّتُهُ الإمبراطورية البيزنطية أيرين للفترة 752-803م (ملاحظة: إمبراطور وليست إمبراطورة أنثى: لأنها تمسكت باللقب وحكمت بدلا عن ابنها وريث العرش). والذي يكون في العادة وريث الإمبراطور الروماني والقيم على المعتقد المسيحي والمسيطر على القسطنطينية وشرق أوروبا. أما شارلمان (742-814م) فكان على العكس من الاثنين، حيث كان يسيطر على إمبراطوريات موجودة أصلا وكان ينوي تعزيز مملكته. ولتحقيق ذلك فقد بحث عن حلفاء له، وبالتأكيد فإن أيرين ما كانت لتتحالف معه؛ لأنه كان يسعى لتأسيس إمبراطورية رومانية شمال الألب وبذلك يتحدى منزلتها الإمبراطورية الوحيدة.

امتدت إمبراطورية الكارلونجيين في أكبر توسع لها من نهر إيرو جنوب البيرنيه إلى الألب في شمال غرب ألمانيا؛ لهذا شملت ما يسمى في هذه الأيام فرنسا وبلجيكا وهولندا

لكسمبرج وسويسرا والنمسا وتشيك، وإيطاليا الشماليّة. وبعد فترة من الفوضى الجماعية من القرن الرابع حتى القرن السادس، والتي أدت بشكل ما إلى انهيار الإمبراطورية الرومانيّة القديمة. واستقر أسلاف شارلمان من الفرنجة في مناطق مختلفة أصبحت تدريجياً مواطن للدولة الرئيسيّة في أوروبا. علاوة على ذلك ظلت هذه الإمبراطورية الجديدة في حالة حرب دائمة حيث كانت مرغمة على الدفاع ضد الأمويين في الغرب والسلافيين في الشرق، بالإضافة إلى غزو مقاطعات جديدة واستعمارها وتصويرها. وبرغم ذلك فإن تماسك الدولة لم يكن متقدماً كثيراً حيث كانت شبكة طرق التجارة صغيرة نسبياً. ويستخدم التجار الطرق الرومانيّة القديمة وبعض الطرق الجديدة؛ لأن شارلمان جندي سابق أصلاً فإنه لم يبن عاصمة ذات قُصْر كبير، لكنه كان يتنقل بصورة متكررة وأسس له منازل صغيرة قريباً من الأماكن التي تتطلب تدخلاً إمبراطورياً. وكان قصره في مدينة آخن هو المفضل لديه بالإضافة إلى الكنيسة الصّغيرة نسبياً وحتى المدينة نفسها كانت بلدة نامية. رغم ذلك فقد أسس إدارة معتبرة، وجلب مجموعة علماء وفنانين إلى بلاطه المتحرك وكان مؤمناً بشدة برسالته المسيحية. وأدى هذا بالطبع إلى توافق سياسي مرحب به. وعلى العكس من الإمبراطورية الرومانيّة، فقد أدرك شارلمان مكانة البابا الاستثنائية لذا أرسل قوات مسلحة لحمايته من اللبارديين، وبذلك ظهرت علاقة قوية بين الحاكم الألماني والكنيسة الروم الكاثوليكية. وفي عام 800م توج شارلمان إمبراطوراً رومانياً من قبل البابا ليو الثالث (795-816م).

كانت مملكة هارون الرشيد تختلف إلى حد ما عن مملكة شارلمان. حيث شملت الإمبراطورية العباسية كل الجزيرة العربيّة والشرق الأوسط حتى نهر جيحون في الشرق وساحل شمال أفريقيا حتى ليبيا اليوم. وبرغم ضخامة هذه الإمبراطورية، فقد كانت هناك مشاكلٍ بخروج بعض الأقاليم التابعة، وقد طور العباسيون إدارة فعالة بصورة جيدة وبنى تحتية. ومن أجل تثبيت مواريث السلطة فقد انتفعوا من التقاليد الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية. حيث مثلت العاصمة المنشأة حديثاً بغداد إحدى المدن البارزة في ذلك الزمان. فقد جمعت العلماء والفنانين والفلاسفة، كذلك كانت بغداد جزءاً من شبكة كبيرة من طرق التجارة. وكان هارون الرشيد بالطبع يسعى إلى توسيع مدينته؛ فبنى له قصرًا ليلائم مطلب القوة السياسيّة والثقافية. ومما عرفناه حتى الآن يبدو من الواضح أن الطرق ما تكن سهلة لأمن الناحية الطبيعيّة أو السياسيّة؛ لهذا فإن رحلة من آخن إلى بغداد والعكس كانت تتطلب وقتاً طويلاً. بالإضافة إلى أنها كانت رحلة محفوفة بالمخاطر، وعند عدم وجود قوى سياسيّة منسجمة فإن هذه الطرق تصبح مملوءة بالقراصنة والمجرمين الذين لا يعيرون اهتماماً للروح البشريّة. وحتى بالنسبة إلى هارون الرشيد وشارلمان فإن السفر كان بالكاد خياراً سهلاً. ومع ذلك فقد عرف كل واحد منهما عن الآخر باستخدام طرق المراسلة القديمة وأرسلا هدايا لبعضهما بعضاً، وتفاوضا حول المواضيع السياسيّة. بالطبع فإن التبادل الثقافي على المستوى الاجتماعي لم يتطور؛ مع ذلك فقد كانت أهمية التواصل واضحة لدى الصفوة السياسيّة الموجودة آنذاك في بداية القرن التاسع بعد الميلاد.

وعلى نقيض العصور السابقة، فقد بزغت ثلاثة معتقدات دينية رئيسية: اليهودية والمسيحية والإسلام. والدينان الآخران كانا ديني إمبراطوريتين عالميتين. لكن لم يمثل الدين عقبة مستعصية للسياسة يصعب تجاوزها كما هو الحال فيما بعد. لهذا فإن المعرض ليس لوصف الحدث التاريخي فحسب وإنما ليتضمن في محوره تشكيلة الثقافات المختلفة بالإضافة إلى المشاكل وفوائد التبادل الثقافي والاقتصادي المعولم في عالمنا اليوم. وقد ركز في هذا المعرض على تأثير الإسلام على العالم الغربي كذلك من خلال عنوان المعرض: "الشرق القديم" من الشرق إلى الغرب. ولرحلة لانتفريد وسيجيسمند وإسحاق من الإمبراطورية الإفرنجية نحو بغداد أهمية بسيطة بالمقارنة مع رحلة العودة إلى آخن حاملاً معه في حقيبته الهدايا الشرقية وانطباعاته. وترجع الأفكار الأولية لإقامة معرض يعالج موضوع إسحاق إلى منتصف عام 1990م. وكان وولفجنج دريسون بمثابة "الرائد الروحي" للمعرض، وكان المعرض تسجيل نقطة ضد رهاب الأجانب ومعاداة السامية برغم كل شيء في ألمانيا، وفي البلدان الغربية بصورة عامة. تبين قصة إسحاق الرسالة الضمنية للمعرض، فهي عن يهودي كان جزءاً من شبكة معقدة لكن مؤثرة حول العالم، وقد استخدم لنقل الرسائل والسلع الحضارية من العالم الإسلامي إلى العالم الأوربي الغربي، هذا هو الغرب المسيحي الذي ينتفع من الشرق الإسلامي إضافة إلى يهود الشتات. لكن أحداث الحادي عشر من سبتمبر والصراع المستمر بين إسرائيل وفلسطين والحروب في أفغانستان والعراق في النهاية كل ذلك برّر ضرورة توسيع معنى المعرض بصورة كبيرة ببنانوراما أكثر تفصيلاً. وقد استخدمت عناوين "بغداد" و"القدس" و"آخن" لبيان الأركان الفكرية والدينية للحضارات الثلاث بالإضافة إلى الدين والفلسفة والعلوم والفن وفن العمارة. وتناولت المقالات المكتوبة والأدوات الحديثة في قراءة معنى المعرض تفاصيل الأحداث السياسية إضافة إلى العولمة بوصفها ظاهرة حديثة بصورة عامة - ومن هنا توفير حرية واسعة للتفسير.

يتضمن موقع المعرض في آخن ثلاثة مبانٍ حيث كان منها المخصص في الأساس ليكون سكناً إمبراطورياً: مثل قاعة المدينة (أي قاعة التتويج)، والكاتدرائية، الكنيسة الإمبراطورية السابقة، والخزانة. ونتيجة للأعمال الحالية فقد تم تقسيم المعرض، ضمت قاعة التتويج تفاصيل بداية رحلة إسحاق، والتي هي تصوير لبغداد وبلاط هارون الرشيد هو بمثابة عرض للعلوم الإسلامية والثقافية والفنون. ويتابع المرء إسحاق إلى القدس في مبنى الخزانة. وهنا يعطينا المعرض تصوراً داخل المدينة المقدسة في العصور القديمة والوسطى، وفي الوقت نفسه يبين لنا المعتقدات الدينية الثلاثة التي تمثلت جميعها في المدينة. أما القسم التالي في الرحلة فإنه غير موثق بصورة جيدة لهذا لم يتم عرضه، فقد سلك إسحاق الطريق الروماني على طول الساحل الشمالي الأفريقي لتجنب المنطقة البيزنطية وركب من ميناء تونس إلى بورتوفينو في إيطاليا الشمالية. ومن هناك ربما عبروا مضيق القديس برنارد العظيم عبر الألب للوصول إلى مركز الإمبراطورية الإفرنجية. ومع نهاية رحلة إسحاق ووصوله إلى آخن، يصل كذلك الزائر للمعرض إلى

الكاتدرائية ذات المركز المثلث الأضلاع والذي يرمز إلى عرش شارلمان. ويكمن مفهوم قوة المعرض من خلال إيجاد مساحات عرض تتلاءم مع عناوين رحلة إسحاق إضافة إلى تمكن الزائر من فهم مواقع العرض المختلفة بصورة مقنعة، بداية الرحلة إلى بغداد في قاعة التتويج هدفت إلى توليد شعور بالسوق الشرقية. حيث يسير الزوار على طول طريق صغير يحتوي على محلات صغيرة والذي بينت فيه أهداف المعرض. وفي نهاية هذا الشارع يبرز قصر هارون الرشيد المميز بجدرانه ذات اللون الذهبي. كذلك عرضت هناك بعض الأمور المستخدمة في السفر كالخرائط وأجهزة الملاحة، وعرضت فنون الدولة الإسلامية وعلومها من خلال الكتب، كذلك عرضت روعة القصر في بغداد من خلال الأبواب الأصلية والسجاد والفسيفساء. المكان المعد لتمثيل القدس والمعتقدات الدينية كان مقتصرًا على نوعية مبنى الخزانة الذي كان مجاورًا لدير سابق. طبقًا للمعتقدات التوحيدية الثلاثة الموجودة أصلاً في الكتب الدينية فقد تم دمج ثلاثة كتب دينية: الأسفار الخمسة المؤرخة عام 929م التي وجدت في الفسطاط، أحد كتب العهد الجديد الكارولنجي (من سيرة المسيح، ومملكة الرب، والخلاص) في بداية القرن التاسع المكتوب في آخن، وجزء من مخطوطة القرآن من القرن التاسع أو العاشر الذي وجد في العراق أو سوريا. بالإضافة إلى ذلك فقد تم تمثيل هذه المعتقدات من خلال أماكنها المقدسة في القدس: الهيكل، كنيسة القيامة ومسجد قبة الصخرة.

وقد تم تمثيل مدينة آخن بالطبع بكاتدرائيتها والتي ما تزال تعطي صورة مذهشة عن فن العمارة الكارولنجي. بالإضافة إلى ذلك يمكن ملاحظة أن هناك عرضاً للأدوات الكارولينية المختلفة ومعلومات عن التقنيات العسكرية، ومن ثم مثل شارلمان شريكاً جديراً بالاهتمام لهارون الرشيد رغم كل شيء بسبب نجاحه العسكري.

من المؤسف أنه لم يتبق أيٌّ من هدايا هارون الرشيد لشارلمان إلى هذا اليوم، لكن رغم ذلك فإنها توجد مدونة في سجلات المملكة. فقد تم استخدام معظم المواد وتم صهر المعدن واستخدمت الأحجار الموجودة في الزينة الكارولينية وكذلك المجوهرات. وقد توفي الفيل أبو العباس بعد سنوات من وصوله إلى آخن، لكن ظل وجوده حاضراً بأشكال أخرى كما في الرسوم والمنحوتات والأعمال المصنوعة من القماش. هناك هدية مثيرة أخرى (قدمت إلى شارلمان عام 806م بعد وصول البعثة الثانية من بغداد) وقد تمت إعادة بنائها باستخدام الكمبيوتر: وهي عبارة عن ساعة مائية والتي اعتبرت تحفة فنية غير معروفة للعالم الغربي، حيث لم تتحمل هذه الهدية شتاء القرون الوسطى في آخن وتناثرت بسبب الصقيع القاسي.

تلخيصاً لكل جوانب المعرض، "الشرقي القديم. إسحاق والفيل الأبيض بغداد - القدس - آخن. رحلة عبر ثلاث ثقافات بين العام 800م واليوم" والذي كان مشروعاً طموحاً. فقد حاول توثيق عملية التبادل التاريخي للبعثات بين شارلمان وهارون الرشيد، وشرح تنوع الثقافات الثلاث بين القرون الوسطى واليوم. ومن المثير للدهشة في هذا المعرض إتاحة الفرصة لعقد مقارنة بين الماضي والحاضر، من خلال الاتصالات الودية، ومن خلال

الاختلاف، ومن خلال الاهتمامات العلمية والفكرية نحو الحضارات الأخرى بالإضافة إلى الحركة الدبلوماسية والسياسية بينهما. ومن الطبيعي أن تكون في المعرض بعض نقاط الضعف. برغم كل شيء إنَّ التصميم الفعلي -بسبب القيود المادية- لم يتمكن من الإحاطة الكاملة بالمفهوم، لكن برغم ذلك فقد زاره 100.000 زائر، مما يثبت نجاح المعرض وشعبيته والذي كان موضوعه: التاجر اليهودي، والفيل، والثقافات العالمية الثلاث في آخن.

(* صحفي ألماني مهتم بالعلاقات بين الحضارت.